الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغاياتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــــة

هذه خلاصة موجزة لتلك الدعوة الألحادية الغريبة التي اضطلع بها لحساب الحاكم بأمر الله ذلك الداعية المغامر حمزة بن علي ، ومما يلفت النظر بنوع خاص أن حمزة بن علي لم يفته خلال شرح مذهبه أن يدافع عن شذوذ الحاكم بأمر الله وتصرفاته المتناقضة ، وأن يحاول أن يفسرها بما يلائم دعوته ويدعمها ، أجل ، لقد كان في تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرب مايبعث على التأمل ، ومايجب أن يحمل لاعلى الشذوذ والتخريف ، ولكن على الحكمة والسمو الى مالايرتفع الذهن العادي الى فهمه وتعليل بواطنه ، هكذا يقدم الينا حمزة تصرفات مولاه الحاكم ؛ فاذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر ، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة عن الناس ، فمعناه تحليل ذلك للكافة[1] ، وإذا كان الحاكم يتبع أحياناً سياسة الاضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود ، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين ، ومن بقي منهم يؤدون الجزية ، وهم اليهود ، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين من التوحيد ، وهم المنافقون أن يلبسوا أزياء خاصة ، وأن يعلقوا في صدورهم وآذانهم أثقالا خاصة من الرصاص[2] ؛ وإذا كان الحاكم يؤثر التقشف في مأكله وملبسه وركوبه ، فيركب الحمير مجردة عن الديباج والحلى الذهبية ، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعي بآيات من القرآن ، ويفسرها بدلائل رمزية غريبة[3] ، وإذا كان الحاكم يخرج من مرداب القصر الى البستان ، وإذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ويطوف أحياناً في المدينة ، فذلك أيضاً لحكم باطنة لاتدركها الكافة ؛ ومايرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التي يرتادها من المنكر والفحشاء ، إنما يرتكب في طاعته[1] ، وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك ؟ إنه مظهر لسطوة الحاكم « الالـهية » فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولاحرج كما فعل مع حاجبه برجوان ووزيره ابن عمار ومع غيرهما من الأكابر والزعماء ؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ودون سلاح ، لايخشى نقمة أو اعتداء ، ويخمد كل ثورة تشهر عليه ، وكثيراً مايتفرد بنفسه في جب الصحراء دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته ، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر !

هكذا يفسر الداعي لنا أعمـــال الحاكم وتصرفاته المثيرة المدهشة ؛ وما اعتبره المعاصرون شذوذاً وإسرافاً وجنوناً ، وما يسمه التاريخ بميسم التناقض والتخريف والاغراق ، إنما هو في زعم الداعي السمو فوق مدارك البشر ، والتحلي بصفات ليست للبشر ؛ ومهما يكن في ذلك التفسير من غلو وتخريف ، فهو محاولة ذكية جريئة لتبرير مالم تبرره الشرائع والمجتمع ، وما لم يبرره التاريخ

ولا يقف حمزة بن علي عند الدعوة لسيده ومولاه ، بل يدعو لنفسه أيضاً ؛ فاذا كان الحاكم هو « الالـه » ، فان الداعي هو رسوله ونبيه ؛ وعلى هذا فان حمزة الذي يصف نفسه في معظم رسائله بهادي المستجيبين ، ينتحل النبوة لنفسه صراحة ، ويزعم أن هذه النبوة قد تأيدت بالمعجزات التي أسبغها مولاه الحاكم عليه[2] ؛ ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصومه ، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة وينهزم الخصوم ؟ ألم تنشب موقعة أخرى في المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائماً[3] ؟ فهذه أعمال تخرج عن قدرة البشر ، وهي من معجزات الداعي !

* * *

ويبدو من التواريخ التي يذيل بها الداعي رسائله أنها كتبت بين صفر سنة ٤٠٨ هـ ، وأواخر سنة ٤٠٩ هـ . وكما أن الداعي يصف لنا سنة ٤٠٨ هـ بأنها هي أول سني قائم الزمان (الحاكم) ، فهو يصفها أيضاً بأنها أول سني « ظهور عبد مولانا ومملوكه هادي المستجيبين » ومعنى ذلك أن حمزة بن

(١) ص ٢٩ — ٣٤

(٢) ص ١٠١ (٣) ص ١٤٧، ١٤٨

(١) ص ١٥٠ والظاهر أن بعض محال اللهو والبغاء العام كانت تقع بجوار هذه البساتين (٢) ص ١٣٠ من المخطوط (٣) ص ١٣٣

على بدأ القيام بدعوته فى أوائل ســـنة ٤٠٨ هـ ؛ ونستدل أيضاً من تعاقب التواريخ فى هذه الرسائل الثمانية أنها تكون وحدة متصلة قائمة بذاتها ؛ وهذه الرسائل هى متن الدعوة وهى ذروتها ؛ وقد اســـتمر حمزة فى تنظيم دعوته وبثها تحت رعاية الحاكم وإشرافه حسبما ينوه فى بعض رسائله ؛ ولكن الحاكم زهق غيلة فى شوال سنة ٤١١ هـ فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه ؟ لقد كان اختفاء الحاكم بتلك الصورة الفجائية الغامضة مستقى جديداً للدعاة ، فزعم بعضهم أنه اختفى ليظهر فى عصر آخر ، أو أنه رفع الى السماء ، وأن فى هذا الأختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بألوهيته[1] وقد استمرت هذه الدعوة الألحادية بعدمصرع الحاكم عصراً آخر ، وإن كانت قد اتخذت سبلاً ومواطن أخرى ، وأمامنا مجموعة أخرى من تلك الرسائل الألحادية هى التى أشرنا اليها فيما تقدم[2] ؛ ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته ؛ وقد ذيلت بتواريخ وضعها فى جمادى الآخرة من سنى ولى الحق العاشرة ، وفى صفر سنة إحدى عشرة من سنى قائم الزمان ، وفى السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان . . . الخ ؛ وعهد قائم الزمان يبتدىء كما تقدم فى سنة ٤٠٨ هـ ، وعلى ذلك تكون هذه الرسائل قد كتبت بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٢٢ هـ ، ويكون حمزة بن على قد استمر قائماً بدعوته الألحادية إلى هذا التاريخ أو بعده بقليل ؛ ولم تنته الدعوة بمصرع الحاكم بأمر الله ، ولكنها استمرت تغذيها قوى وعناصر أخرى

ولقد كانت هذه الدعوة الألحادية بلا ريب جزءاً من الدعوة الفاطمية السرية ، ولكنها اتخذت فى عصر الحاكم بأمر الله صورة خاصة ، وانحرفت عن غايتها العامة لتعمل على تحقيق غاية خاصة . وقد نقل الينا المقريزى بياناً شافياً عن هذه الدعوة السرية الشهيرة ومراتبها التسع[3] ، وهى فى مجموعها فكرة إلحادية فلسفية نظمت فى مراتب متعاقبة للعمل على هدم العقيدة الاسلامية بصفة خاصة والعقيدة الدينية بصفة عامة ، واستبدالها بفكرة فلسفية ترتفع فوق أفهام الكافة . بيد أن هذه الدعوة الألحادية العامة تنحرف فى عصر الحاكم لتعمل على تحقيق فكرة خاصة هى « ألوهية » قائم الزمان أعنى الحاكم بأمر الله ، وهى مع ذلك تجرى مجراها العام فى مجالس الحكمة بالقصر ودار الحكمة . وانها لصفحة من أغرب صحف الثورة على الأسلام ؛ بيد أنها كانت ثورة سرية تقصد الى غزو العقول والأفهام ، ولم تكن فورة عنيفة تسحق كل شىء فى طريقها بالقوة المادية كما كانت فورة القرامطة ، وهذه الرسائل الكلامية الغريبة التى يتركها لنا الداعى تلقى ضياء على كثير من التفاصيل الخاصة التى كانت ترتبط بالدعوة السرية الفاطمية ، ويفتن الدعاة فى سبكها وتنظيمها . ولقد نظمت الدعوة الفاطمية قبل عصر الحاكم بأمر الله بكثير ؛ ومنذ عصر المعز لدين الله وولده العزيز تعقد مجالس الحكمة ؛ ولكنها كانت عندئذ علنية ، وكانت فقهية تجرى المحاضرة فيها فى فقه آل البيت ومبادىء الشيعة ؛ وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتشح بشعار الأمامة الأسلامية على أنها من حق الفاطميين وتراثهم الخالص ، وعلى أنها عنوان الزعامة الشرعية من الوجهتين السياسية والدينية ، ولكن هذه الدعوة الدينية السياسية ما لبثت أن تطورت بسرعة ، واتخذت صبغتها الألحادية المغرقة فى عصر الحاكم بأمر الله . ومن الغريب أن يكون الحاكم ، ذلك الذهن الهائم المضطرب ، هو القائم بأعظم دور فى تغذية هذه الحركة وبثها ، وهو المنشىء لدار الحكمة التى لبثت مبعثها وملاذها عصراً ، بيد أن هذا الأغراق ذاته كان ضربة شديدة للدعوة الفاطمية ، لأنه جعلها وقفاً على رهط من الدعاة المغامرين الخبثاء ، وباعد بينها وبين الكافة ، وأسبل عليها ألواناً خطرة من الزيغ والألحاد ، ولهذا فقدت الدعوة الفاطمية غير بعيد قوتها وأهميتها وإن كانت مجالس الحكمة قد استمرت بعد ذلك حتى أوائل القرن السادس

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة الذين اضطلعوا ببث هذه المبادىء والتعاليم الألحادية فى مصر لم يكونوا من المصريين ، وإنما كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية ؛ وقد ذكر لنا حمزة بن على أسماء بعض أقطاب الدعاة مثل على بن عبد الله اللواتى ، ومبارك

(١) راجع ابن خلكان — ج ٢ ص ١٦٧

(٢) هى المحفوظة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) الخطط — الطبعة الأهلية ج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها . وقد ترجم المستشرق كازانوفا هذا البيان إلى الفرنسية ونشره بعنوان Doctrine Secréte des Fatimides « التعاليم السرية الفاطمية » — وذلك فى مجلة المباحث الأثرية الشرقية B. d'Archeologie Orientale وقرن ترجمته ببعض شذور عن دعوة القرامطة والاسماعيلية ، ولكنه لم يفطن الى رسائل الدعاة الفاطميين ولم ينتفع بها

ن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، هـذا عدا أخرم ومحمد بن اسماعيل الدرزى السابق ذكرها ؛ ولم يحسن مصريون استقبال هؤلاء الدعاة الخطرين ، بل قاوموهم ، وفتكوا بهم فى أحيان كثيرة ، أو اضطروهم إلى الفرار ؛ ولم يستطع واحد منهم أن ينشىء له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين ، وإن كان الدرزى قد استطاع أن ينشىء له بالشام فرقة جديدة هى طائفة الدروز التى مازالت قائمة حتى اليوم

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل ، وهى من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيق ؟ وماذا كان نصيب حمزة بن على فى إنشائه ؟ والمعروف أن بعض المستشرقين ، ومنهم دى ساسى ، يعتبرون أن حمزة هو مؤسس المذهب الحقيق ، لأن كثيراً من تعاليمه ورسائله تمثل فى كتب الدروز المقدسة [1] ، وقد أشكل على بعضهم فهم مزاعم حمزة ، فاعتقد أنه هو الذى يحمل لقب «قائم الزمان» الذى يتردد فى رسائله ودعواته ، فى حين أنه صريح فى إسناد هذا الوصف للحاكم بأمر الله . والواقع أن فرقة الدروز نسب قبل كل شىء إلى الدرزى ، وهو الداعى محمد بن اسماعيل الذى تقدم ذكره ، وفى بعض رسائل حمزة مايلقى شيئاً من الضياء على نصيبه الحقيق من الدعوة ؛ ومن المرجح أن الدرزى سبق حمزة فى القدوم إلى مصر ، وفى الدعوة إلى « ألوهية » الحاكم بأمر الله كما قدمنا ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن حمزة مالبث أن تفوق عليه وفاز دونه بالزعامة والقيادة ، وأن خصومة نشبت بينهما كان الظافر فيها هو حمزة . ويشير حمزة إلى ذلك فى رسالته الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة حيث يحمل على الدرزى الذى هو « نشتكين » (وهو لقب تركى يطلق على الدرزى ويعرف به) ويقول إنه « تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو العبد الذى تسمّى بأنه يظهر من تحت ثوب الامام ، ويدعى منزلته . . . وكان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعى والسترة التى أمره بها إمامه حمزة بن على الهادى إلى توحيد مولانا جل ذكره » ثم يقول إن الدرزى أنكر التعاليم وتمرد وأثار للجدل بينهما ، وغيره ماكان يضربه من زغل الدنانير والدراهم [1] ، ويبدو من ذلك جلياً أن حمزة كان يقف من الدرزى موقف الامام والأستاذ ، وأن الدرزى خرج على تعاليمه ومبادئه ، واستقل بعد ذلك بانشاء فرقة — الدروز — فى الشام ، فهو المؤسس إذن لمذهب الدروز ، وقوامه مزيج من نظرياته وتعاليمه ، ونظريات حمزة وتعاليمه ، ومن الصعب أن نحدد ما لكل من الداعيين فى إنشاء هذا المذهب الغريب من المبادئ والنظريات ، بل من الصعب أن نعين منهما الأصل والناقل ؛ بيد أن بعض النظريات الأساسية التى يعرضها حمزة فى رسائله ما زالت قواماً لمذهب الدروز مثل القول بحلول الروح القدس فى شخص الحاكم ، واعتباره « قائم الزمان » ؛ ثم إن التاريخ الذى يتخذه حمزة لبدإ هذه الدعوة هو سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م) وهى نفس السنة التى اتخذها الدروز بدأ لتاريخهم المقدس ؛ وعلى ذلك فاذا كان الدرزى هو الذى أسس فرقة الدروز ، فان لتعاليم حمزة أثراً كبيراً فى صوغ هذا المذهب

ولا ريب أن حمزة بن على كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة ؛ ففى تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة ؛ ولكن إنشاء دين جديد وعقيدة جديدة والدعوة إلى « ألوهية » بشر ، محاولة تقصر عنها جهود أذكى الدعاة وأقواهم ؛ ومن ثم فأنا نلمس فى آرائه وتدليله كثيراً من ضروب التناقض والضعف ، ونراه يلجأ إلى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة ، ولا يحمل هذا المزيج الذى يقدمه الينا من الشروح والأساطير اليهودية والنصرانية والاسلامية كثيراً من طابع الابتكار والطرافة ، ثم هو فوق ذلك يقدم الينا رسالته فى أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربى ؛ ومع ذلك فان هـذا التراث الذى انتهى الينا من جهود الدعاة يلقى كثيراً من الضياء على أسرار الدعوة الفاطمية وغاياتها ، وهو بذلك يعتبر من الوجهة التاريخية وثيقة لها قيمتها وخطورتها [2]

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى كلمتى «درزى» « وحمزة » . ولدى ساسى كتاب فى عقائد الدروز عنوانه Exposé de La Religion des Druses

(١) راجع المخطوط ص ١٢٥ — ١٢٨

(٢) نرى أن نشير هنا إلى مجموعة ثالثة من الرسائل الألحادية التى انتهت إلينا من آثار العصر الفاطمى ، وهى تحفظ بدار الكتب تحت رقم ٢٠ عقائد النحل . وهى بلا عنوان ولا خاتمة ، غير أنه يبدو من قراءتها أنها ترتبط أشد الارتباط بما تقدم من الرسائل ؛ وفى رأينا أنها ليست من تأليف حمزة بن على لاختلاف أسلوبها ولهجتها عن الرسائل الأخرى ؛ ويلوح لنا أنها من كتابة أحد صغار الدعاة ؛ وفيها شرح لبعض الخلال والمسائل كالصدق والدعاء والتحذير والنميمة . . . الخ ؛ وبعض الوقائع التى حدثت للدعاة : وهى فى غاية من الركاكة والضعف من حيث التفكير والأسلوب